الفصل الأول

صيحة تنبعث فى عويل منغوم ، من أصوات عديدة : « جوديث ! جوديث ! » .. وبينما ترفع الستار ، يسمع صوت فرد يردد الصياح المعول ، ثم يظهر المسرح ، والعم يوسف وعدد من الخدم يجرون فى جنبات غرفة ، وقد شهروا سيوفا وهراوات ، وراحوا يبحثون فى كل مكان عن مصدر ذلك الصوت المفرد .. ويقول يوسف :

يوسف : إنه فى مكان ما من البيت .

خادم : لا يا سيدى ، إنه موجود .. أعنى أنه غير موجود ! لا أحد ينكر أن صوته هنا ، ولكن الصوت يا سيدى بلا جسد !.. إنه شبح .. إنه صوت من الأموات يناشد ابنة أخيك ، لأنها الوحيدة التى تملك أن تنقذنا .. جوديث ! جوديث !

وينطلق النداء فى نفس النغم المعول السابق ، فيتملك الهلع الخدم ، لا سيما حين تنبعث أصوات من الخارج تردد الاسم فى عويل . فيطرد يوسف الخدم ، ويروح يتلفت حوله فى توجس ، فإذا بوجه يبدو فى النافذة ، ويوقع صاحبه النغم على الزجاج وهو يردد بنفس الصوت الحزين المتهالك : « جوديث ! جوديث ! انقذينا ! » .. ويختفى الصوت ، فيعود الخدم إلى البحث ، حتى إذا عجزوا عن أن يجدوا شيئا ، وقفوا جامدين حائرين . ولا يلبث أن يدخل « يوحنا » ـــ وهو

ضابط شاب — يجر الرجل الذى بدا وجهه خلال النافذة من قبل فيلقى به عند قدمى يوسف قائلا : « لقد فاجأته وهو يفر .. سنعلم هذه الأفواه النجسة أن ثمة أسماء يجب أن لا تمس ! » . ويسأل الرجل عمن يكون ، فيقول يوسف :

يوسف : إن رائحته تنم عن أنه بحاجة إلى حمام .. لا بد أنه واحد من الأنبياء !.

(وقد كان اليهود فى الماضى يطلقون على الأتقياء المتفرغين للعبادة « أنبياء ») .

خادم : إن المدينة مليئة بهم .. إن الكلاب المحتضرة تتصيد الذباب . ولكن .. إذا كانت المدينة هى التى تحتضر ، فإن الكناسين يلقبون بالأنبياء ، والطنين يسمى « نبوءة » !

ويعود « يوحنا » إلى سؤال الرجل عن اسمه ، فيرفع هذا يده ويهتف : « جوديث ! جوديث !.. يا أجمل الطاهرات ، ويا أطهر الجميلات ! » .

يوسف : إننا نعرف هذا . إنها النبوءة !.. أجمل بناتنا ، وأطهر زهرات إسرائيل .. يجب أن تسلم نفسها لهولوفيرن !

النبى : جوديث ! أنقذينا !

ويجره الخدم إلى الخارج وهو يردد نداءه المعول ، بينما يتلكأ أحدهم ، ثم يلتفت إلى سيد الدار قائلا : « أيها السيد الرحيم .. دع جوديث تنقذنا ! » ، ويهرب قبل أن ينزل به « يوسف » نقمته . وإذ ذاك يخلو الجو ليوسف — عم جوديث — ويوحنا ، خطيبها ، فنفهم من حديثهما

أن الفتاة فى المستشفى تعنى بالجرحى ، وأن إسرائيل تحتضر ، والعدو جاثم خارج أسوار المدينة يخنقها بحصاره ..

يوحنا : هل تراها تعلم أنهم قرروا أن يرسلوها قربانا إلى هولوفيرن ؟ لقد اجتمع الكهنة ، ولن يلبث كبيرهم أن يفد ، لإغراء جوديث .. والمدينة كلها من ورائه !.. إن النداء مكتوب بالطباشير على جدران المدينة كلها .. ومحفور بالماس على زجاج النوافذ .. ومرسوم بالفحم على الأسوار الخلفية .. نفس الكلمات السخيفة : « جوديث الجميلة ، أطهر الطاهرات ، ستضاجع هولوفيرن » !.. وأولئك الحمقى يتجمعون عند نواصى الطرق .. نفس الشيوخ المخرفين ، الذين يتجمعون فى ارتقاب ، كلما اشتم الناس رائحة معجزة توشك أن تقع !

وتتعالى الأصوات من الخارج معولة : « جوديث .. أنقذينا ! » .

يوسف : إذا كان قومنا أتقياء يا يوحنا ، فما ذلك إلا لأن التظاهر بالتقوى يتيح لهم حجة إرشاد الله إلى إدارة ملكه فى الأرض !

(فقد كان أتقياء إسرائيل يملون على الناس آراءهم ، زاعمين أن الله أوحى بها إليهم .. حتى الفسق ، الممثل فى دفع عذراء طاهرة إلى فراش ملك الأعداء كى يأمر بفك الحصار عن إسرائيل .. حتى هذا الفسق زعموا أنه رغبة الله ، وأنه « معجزة » !)

ويستشيط « يوسف » غضبا وهو يسمع الأصوات تتعالى — متضرعة — باسم ابنة أخيه ، ويخنق « يوحنا » هو الآخر ، ولكنه

لا يرى حيلة إزاء الشعب ، لا سيما وأن « الحاخام الأكبر » فى طليعته .

يوسف : إذا شاءت جوديث ، فإن فى وسعها أن ترد للحاخام الأكبر عقله !

يوحنا : إن العقل فى صف الكهنة فى أوقات الموت والمجاعة ، إذ أن لديهم المنطق الذى يطالب بالمعجزات ، بل ويبتكرها إذا استدعت الحال !.. على أننى جئت لأنبئك بأن فى وسعى أن أنقذ ابنة أخيك من أن ترمى إلى البرابرة .

يوسف : تنقذ جوديث ؟.. ظننت أن جوديث هى التى ستنقذ المدينة !

* * *

ويخرج يوحنا ، بينما تنبعث الأصوات تردد اسم جوديث مترنمة ، لا معولة ، فى هذه المرة . ويسمع صوت يوحنا فى الخارج وهو يصرخ مطالبا إياهم بالصمت . ثم يقول :

يوحنا : لقد أحالوا اسمها إلى ترنيمة .. ترنموا أيها الأنجاس ، ترنموا ، فهناك أوقات تكون فيها الصلاة أكثر مجافاة للإنسانية من صيحات الدم !.

ويقبل الحاخام الأكبر « يواقيم » ، فيسأل عن « جوديث » ، وإذ يسأله يوسف عن بغيته منها ، يقول :

يواقيم : إننى — بوصفى الكاهن الأعلى ، والحاخام الأكبر لإسرائيل — لا أملك أن أعلن بغيتى إلا لابنة أخيك .

يوسف : إنما جئت لتحول فتاة ساذجة إلى قديسة قومية يندبها الناس

ويبكونها !

يواقيم : إن هذا من شأن إسرائيل ذاته ، وإسرائيل اليوم يتكلم بصوت أنبيائه !.. والحق أنه لم يعد لقومنا ما يعيشون عليه — وهم يفتقدون الخبز — سوى النبوءة !

يوسف : إنك كاهن ، وأنا مصرفى ، فلا تحدثنى عن النبوءة ، بل سمها باسمها الحقيقى : « هوس عام » .

يواقيم : كأنى بالرأس الوحيد الصافى التفكير هو رأسك .. وكأنى بك ترى ببصيرتك المجلوة نهاية هذا الحصار الذى أمات قومنا جوعا ، وقضى على تجارتهم .. كأنى بك ترى أبناء إسرائيل لا يزالون ممتلئين سمنة وهم يقتاتون من خيرات الله ؟!.. لعلك — وأنت العاقل الوحيد فى المدينة — تشم عبير الربيع ؟!

يوسف : بل أشم الموت والوباء !.. إن بيننا وبين جيش هولوفيرن نطاقا من جثث اليهود المتعفنة ، ومع ذلك فلست أقر قومنا على لهفتهم لإنقاذ جلودهم بأى ثمن ، وعلى تصرفهم كبرابرة جهلة !

يواقيم : وما الذى تراه بين أسرتك وبين المذبحة الأكيدة التى ستحيق بنا فى صباح غد ؟.. لسوف تكون ابنة أخيك من الضحايا كغيرها !.. لعلك تدرك أن العامة يتطلعون إذا أعوزتهم الجرأة وهددتهم الكارثة .. يتطلعون إلى .. معجزة ! والمعجزة الآن فى متناول أيدينا ، فإن المدينة — بعد شهرين

من الجهاد الأعمى ـــ تسمع اسم ابنة أخيك يتردد .. لقد اختارها القوم لتكون معجزتهم ، وإننى لأعرفها منذ حداثتها .. إنها جميلة ، معتدة بجمالها .. وإنها لغنية ، تعرف كيف تستمتع بثمار حظها وثروتها .. كل شباب البلد يتقربون إليها ، وإنها لتتصدر مجالس الكتاب والأطباء والتجار وطلاب اللهو .. وإن شعورها بجمالها هو الذى سيجعلها توافق على أن تهب نفسها لله !.. لقد سمعت بأن الله اختارها ، فهل تراها أبدلت شيئا من أسلوب حياتها ؟

وتصل « جوديث » فى تلك اللحظة ، مصطحبة غلاما ، فتقول :

جوديث : تحياتى إلى يواقيم .. عم مساء يا عماه . هل من لقمة فى البيت ليعقوب الصغير ؟.. إنه يموت جوعا !.

يعقوب : لست أريد خبزا .. إنما أريد أن تذهب جوديث إلى عدونا هولوفيرن .

جوديث : عجبا ، لقد وعيت درسك جيدا !.. وماذا تفعل جوديث إذا أسلمت نفسها لهولوفيرن ؟

يعقوب : « لست أدرى » ..

وتغريه على أن يتناول قطعة من اللحم ، فينصاع للإغراء ، ويسعى إلى المطبخ . وإذ ذاك تسأل الفتاة عمها أن يخلى لها الجو مع الحاخام الأكبر قائلة :

جوديث : لا تخش شيئا .. لا وجود الليلة ليواقيم .. إن الأمر الليلة بين جوديث وبين الله .. فقط !

يواقيم : (**بعد خروج يوسف**) إن الله موجود الليلة فى هذه الحجرة فعلا .

جوديث : يخيل إلىّ أنه أخطأ العنوان ، فليست هذه بالدار التى يقصدها !

يواقيم : إن النبوءة تقول إن المنقذة هى أجمل الجميلات ، وأطهر الطاهرات !

جوديث : وهل قالت إنها أيضا أكثر فتيات المدينة حبا للهو والبذخ ؟.. إذا كان القوم يروننى جميلة ، فما ذلك إلا لأننى أرتدى ثيابا غالية ، وأجيد انتقاء ما يلائمنى منها !.. إن أية امرأة أوتيت شجاعة على القيام بما تقترحون ، لا بد أن تبدو طاهرة وجميلة .. وهذا ما تعنيه النبوءة فى الواقع !

يواقيم : إن إلٰهنا لا يتكلم بالتورية والمجاز ! وإذا كنا نتمسك بحرفية الشرع ، فما ذلك إلا لأن إلٰه اليهود يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية !

جوديث : عجبا . ولكننى إلى الآن لم أسمعه يلفظ باسمى !.. ألا تستطيع أن تنسى الثراء والجاه مرة ؟.. لا تزال فى الطبقة الوسطى عذارى كثيرات .. وما رأيك فى العاملات ؟.. خليق بالدين أن يكون أكثر ديمقراطية مما هو الآن ، وأن يتيح فرصة المجد للمغمورات !!

يواقيم : ولكن المغمورات وأهلهن هم الذين اختاروك !

جوديث : لست أحفل باختيار أجمع عليه من لم يخترهم الله .. إن الذى

أسمعه هو صوتهم وليس صوت « جيهوفا » — أو « يهوا » ، وهو من أسماء الله عند اليهود — فليست هناك أدنى دلالة تنم عن رغبة الله .. مجرد لمحة من دفء ، أو مجرد كلمة تكفى ..

* * *

ويقبل إذ ذاك الصبى « يعقوب » ، فيلقى بقطعة اللحم على المنضدة . وتعرض عليه جوديث ألوانا أخرى من الطعام ، فيرفض ، ثم تمنيه بتفاحة ، فيقول « يواقيم » :

يواقيم : لسوف يجبرونه على أن يردها إليك ! ..

ولكنها تعطى الصبى تفاحة ، فيخرج بها مسرعا . وتلتفت جوديث إلى الكاهن قائلة :

جوديث : ليست لدى الأطفال فكرة عما يجرى بين شابة وعملاق فى غرفة مغلقة . فيسألها يواقيم :

يواقيم : وهل لديك أنت فكرة ؟

جوديث : إنها فكرة غامضة .. فقد كافحت الطاغية ذات ليلة فى الظلام !

يواقيم : ومن الذى فاز ؟

جوديث : هو .. فى الحلم طبعا !

وتندفع التفاحة فى تلك اللحظة من النافذة إلى الحجرة ، إذ أغرى القوم الصبى على رفضها ما دامت جوديث لم تتطوع بعد لإنقاذهم .

جوديث : ألا ابحث عن سواى يا يواقيم .. لقد قابلت فى ساحة الدار فتاة من العرافات المباركات ، وهى تحمل خاتم البركة على ثدييها ولسانها ، كما أن لها نفس اسمى ..

يواقيم : ولكن إحدى عينيها عمياء ، كما أن بوجهها بثورا .

جوديث : إذن فعالجها ، ولن تلبث أن تحيل قبحها إلى جمال ..

يواقيم : وكم من الوقت تظنين لدينا ؟

جوديث : سمعت أن إمدادات هولوفيرن أوشكت على النفاد .

يواقيم : أنا الذى أطلق هذا النبأ ! والحقيقة أننا نحن الذين نضبت موارد أسلحتهم .. لم يعد لجيشنا وجود يا جوديث !

وتبدى جوديث ترددا فى أن تصدق ذلك ، ولكن يواقيم يلمح « يوحنا » خلال النافذة ، فيناديه ، ثم يقول لجوديث :

يواقيم : أتحبين أن تسمعى هذا من جندى ؟.. من يوحنا مثلا ؟

جوديث : ولماذا يوحنا ؟.. لا ، لا جدوى . لن أصدق !

يواقيم : إنك إنما تترددين من أجل يوحنا ، ولكننى أعرف كيف أقنعك .

جوديث : تقنعنى ؟.. بماذا ؟

يواقيم : بواجبك فى أن تصبحى قديسة !

جوديث : قديسة لا تخلو من شوائب !.. سل يوحنا ، وإن كان من الطبيعى أنه لن يخبرك عنى بشىء تسمع مثله من بولس أو بطرس أو أى ضابط يتقن الرقص والتقبيل . لسوف تعلم من هذا أننى لست جوديث التى أشارت إليها النبوءة !

ويقبل يوحنا ، فيسأله يواقيم أن يجيب عن أسئلته بصدق تام ، مهما تكن عواقب هذا الصدق . ثم يقول :

يواقيم : أليس من الحقيقى أن فلول حرس المدينة تمردوا فى هذا

الصباح على ضباطهم واستسلموا للعدو ؟..

جوديث : (تصيح) هذه فرية ..

ولكن يواقيم يمضى فى حديثه :

يواقيم : وهل من الافتراء أن كتيبتنا المقدسة — المؤلفة من رجال الدين — قد ولت أمام العدو فى ذعر وتركت علمها على الأرض ؟.. وهل من الكذب أنه لم يبق للدفاع عن المدينة سوى فصيلتين من الكهول الذين اضطروا إلى حمل السلاح أخيرا ؟.

جوديث : أجب يا يوحنا .. تكفينى كلمة واحدة .

يوحنا : لا تكونى قاسية .

جوديث : قاسية ! وأين ذهبت عيناى ؟.. لست بحاجة إلى جواب ، فإنى أقرأه مسطورا على وجهك .. إذن ، فقد حاقت بنا الهزيمة !.. انكسر جيشنا المجيد !.. انهزم قادتنا فى ثيابهم الأنيقة ، وضباطنا فى ملابسهم الموشاة بالأشرطة !

يوحنا : ومع ذلك فما زلت أجسر على أن أتطلع إلى وجهك .

جوديث : ولكنها ليست جوديث التى تراها ، فلو أنك كنت ترانى حقا لغضضت بصرك !.. لو استطعت أن ترانى الآن وقد هزمت بلادنا وديست تحت الأقدام ، لما استطعت أن تحتمل مرآى ولفررت منى بأسرع مما فررت من العدو .. لقد لمحتك منذ لحظات تقبل طفلا فى الشارع ، فكانت هذه أبشع أكذوبة ، لأنك كنت تعلم فى قرارة قلبك أننا هزمنا .. إن الهزيمة بالنسبة للعسكرى قضاء لا يبيح له أى شىء !

يوحنا : إنك صغيرة يا جوديث .. أصغر من أن تتكلمى هكذا !

يواقيم : كفى يا بنى ، فإن جوديث الليلة هى الجندى الأول فى المدينة ، وفى خطوط دفاعنا !.. ثم إننا مسئولون عن أعمالنا أمام الله !

يوحنا : ولكن الله لم يكن يوما مشغوفا بالقضايا الخاسرة . وما أحسبه إلا متقبلا تجديفنا فى ساعة الخسارة ، فإن سبابنا له يجنبه أن يشغل باله بنكبتنا ! ثم إنه لا يزال يجد « جوديث » ليعتمد عليها .. لتلتقط له الكستناء من النار !

جوديث : أجل .. لا تزال « جوديث » فى جعبة الله !.. هل كان ذنبى أنكم معشر الأبطال كنتم أعجز من أن تذودوا عن شرفنا ، فأسلمتم السيف لامرأة ؟

يوحنا : إننا لم نسلمك أنت بالذات — على الأقل — أى شىء . أفحقا أنت أجمل بنات إسرائيل ؟.. إن معظم جمالك منعكس عن بريق الذهب والترف !.. انظر إليها يا يواقيم .. تأملها جيدا .. إن الفتاة على عتبات كل شهوة بشرية وكل نزوة متقلبة !..إنها جميلة ، ولكنه جمال آدمى .. جمال زائل .. جمال اللحظة !

جوديث : وهذه هى اللحظة التى خلقت لها .. أقسم أن أكون الليلة أجمل النساء !

يوحنا : جوديث ! إنك لست العذراء التى ذكرت فى الكتاب المقدس .. سلها يا يواقيم أين كانت فى مثل هذا الوقت منذ

أسبوعين .. كانت فى أحضانى .

جوديث : فى أحضان جندى هزمه العدو !

يوحنا : بل فى أحضان رجل غطى جسمك بجسمه ، وألصق شفتيه بشفتيك !.. ولست أزعم أنك أسلمتنى نفسك ، فأنت لست من السذاجة بهذه الدرجة ..

جوديث : إنما أنت الساذج يا صديقى .. بل ومغرور . ألا أنصت إليه يا يواقيم !.. قبلة واحدة تكفى لأن تجعله يظن أننى له !

يوحنا : لا تقلقى ، فلن تسمعى احتجاجات من شفتى إذا ما تزوجت من هولوفيرن .

جوديث : (**وكأنها تذكرت**) ليس لهولوفيرن وجود .. ليس هولوفيرن سوى اسم لنوع من العذاب فى سبيل التكفير ! وإذا غادرت هذه الديار الليلة إليه ، فلن أكون الفتاة الوحيدة فى الدنيا التى استخدمت جمالها وطهرها وكأنهما لم يكتبا لرجل ، وإنما للحظة جليلة فى التاريخ !

ويحاول يوحنا أن يؤكد لها — رغم اعتراض الحاخام الأكبر — أن هولوفيرن بشر .. رجل ، ورجل عملاق ، ضخم . فتقول له :

جوديث : أليس فى نفسك الصغيرة شىء من الرحمة ؟.. ألا ترى أن شجاعتى لن تصمد إلا بقدر ما أستطيع أن أتحكم فى خيالى ؟.. قل لى ، هل فقدنا كل شىء ؟.. أما من سبيل إلى نجاتنا ؟

يوحنا : لا ، فسوف يشن هولوفيرن هجومه عند الفجر ، ولن يجد

أمامه ما يوقفه .

يواقيم : وها قد جنحت الشمس للمغيب .

جوديث : أشكرك يا يوحنا ، فقد حسمت لى الأمر . سأذهب الليلة .. هذا إذا رضى بى هولوفيرن ! إن أحدا لم يرنى بغير ثيابى ، ولكننى أشهد الله وأؤكد لك وللناس ، أن ساقى ناعمتان ، وقدمى لا تشوبهما خدوش !.. ما أحببت أحدا من أولئك الرجال حبا حقيقيا قط .. لم يمسسنى أحد منهم قط .. أفهل يكفى هذا لإثبات عفتى ، ولأن يكون الله قد اختارنى لتحقيق النبوءة ؟

يواقيم : إنك لطاهرة ، وقد اختارك الله . أفمتأهبة أنت للرحيل ؟.. أفتعلمين ماذا يرتقب منك ؟

جوديث : وفر عليك النصح .. إننى أرى بجلاء ماذا ينبغى أن أفعل .. لقد بدأت أرى ما هى عليه هذه « الجوديث » التى تتطلعون إليها . ولكن .. كيف لى أن أعرف حقيقة الأفكار التى تدور خلف هذا القناع من اللحم .. خلف جسدها !

يواقيم : وهل ترين هولوفيرن ؟.. إنه وحش ، سكير ، يكيل السباب لليهود وربهم !.. وهل ترين نساءه وهن يتكأكأن حولك ، ويلوثن ثيابك ، ويمزقن شعرك ، ويسخرن من جسدك ؟.. هل ترين ببصيرتك ذلك الجبار وهو مضطجع على سريره ، يمد يده ليمسك بك ويجذبك إليه ؟!

جوديث : بل إننى أكاد أمسه .. إننى أرى نبض شريان أزرق فى

عنقه .. وإن وجهه ليزداد امتقاعا .. يا للسموات ، أين أنا ؟

يواقيم : فى الماضى يا جوديث ، وقد حان الوقت لتنتقلى إلى المستقبل .. انتظرى حتى يبزغ القمر ، ثم انطلقى .

* * *

وينصرف يواقيم ، فيحاول يوحنا أن يفت فى عزيمة جوديث ، حتى إذا أخفق سألها :

يوحنا : ترى ما الذي أملك أن أقوله لك ؟

جوديث : كلمة السر التى أمر بها إلى خارج الأسوار !

يوحنا : ألا تستطيعين أن تحدسيها ؟ إنه اسمك .. إن « جيهوفا » نفسه يزهو الليلة يا جوديث لأن اسمه يبدأ بالحرف الذى يبدأ به اسمك !.. وإن الحراس ليرتقبونك عند البوابة المواجهة لدارك .

جوديث : وأين سرادق هولوفيرن ؟

يوحنا : شمالى البوابة .. اتبعى الجدول الذى يقطع الطريق ، ولكن لا تشربى منه ، لأن الماء قد سمم .. ولا تمنى نفسك بوحدة أو سكينة فلسوف تتعثرين كل عشر خطوات فى « كيس » من اللحم والعظام .. وستكون الكلاب فى كل مكان .. وسيبدو كأن ساحة القتال كلها تعول وتنتحب فى رقادها .. أفتريدين أن أنبئك كيف تستطيع فتاة أن تتطلع إلى وجه عملاق ؟.. كيف تستطيع عذراء أن تحتفظ بغشاء البكارة فى الوقت الذى يعتدى فيه على عرضها ؟.. لقد

فاتت الفرصة التى أعلمك فيها كيف تمارس الفتاة الحب .
على أن فى الخارج شخصا هو الذى يستطيع أن يعلمك ..
تعالى يا سوسانا !

ويخرج يوحنا لتدخل سوسانا .. مومس من عاهرات المدينة ، لها وجه جوديث وقوامها وصوتها ، حتى إن عشاق جوديث يلجأون إليها لكى ينفسوا لديها عن الشهوات التى كانت جوديث تثيرها فيهم !

سوسانا : ولكننى لم أسرق شيئا من تعاليك أو كبريائك .. لقد سعدت يا جوديث لأننى جعلت نفسى تبدو مثلك .. أو هكذا أجعل الناس يعتقدون

جوديث : ليس فى وسع امرأة صيغت فى كيان ادمى ، أن تتشبه بى .. ولا سيما الليلة !

سوسانا : ولكنك لم تكونى إنسانة قط .. قبل الليلة !

وتسألها جوديث عما جاءت تبغى ، فتقول سوسانا :

سوسانا : إننى لا أؤمن بالأنبياء ، فإن معظمهم جواسيس يعملون من أجل العدو .. وبعض الناس يظنون أن هولوفيرن سمع كثيرين من الرجال يفخرون بجوديث ، حتى إنه وضع خطته للإيقاع بها لنفسه !

جوديث : وماذا لو فعل ؟ أليس من الممكن أن يكون الله قد بث فى ذهنه هذه الفكرة لكى يقضى عليه ؟

وتروح سوسانا تجادل الفتاة وتضرع إليها أن تحتفظ ببكارتها

وبطهرها ، وأن تدعها تحل محلها فى المهمة التى اختيرت لها ، فتقول جوديث :

جوديث : وما رأيك فى الله ؟ ألن يرى فارقا بيننا ؟.. لماذا تريدينني على أن أحتفظ ببكارتى ؟.. ألأن بكارتى ترسل كثيرا من العملاء إلى بابك ؟

سوسانا : يجب أن تنقذى نفسك يا جوديث ؟

جوديث : ومن قال إننى لن أنقذها ؟

سوسانا : ولكنك فتاة .. فليس لك سلاح ولا حول !

جوديث : إن لدى أخطر الأسلحة طرا .. لدى موهبة الكلام ! إن جوفى ليغلى بكلمات تريد الانطلاق .. تريد الإجابة عن مجموعات من الأسئلة التى لم يوجهها أحد لى .. إنك تبكين يا سوسانا .. لماذا ؟.. إنك لا تفهميننى أكثر مما يفهمنى يوحنا والحاخام .. إذا كنت أعارض فى الطريقة التى يدفعوننى بها ، فما ذلك إلا لأننى كنت أحلم فى ليلى بشيء كهذا أفعله من تلقاء نفسى .. كنت أحلم برجل عملاق يعتدى علىّ ! ولقد انتظرت طويلا .. وها هو ذا الله يوشك أن يفوز دونى بالفضل . ولعلنى كنت أعرف منذ البداية أن الفكرة إنما كانت فكرته هو .. وربما كان الله يرى أننى فكرت فيها من تلقاء نفسى، ولعله يغار منى لأننى فكرت فيها دونه .. وقد يكون هذا انتقامه منى !.. ألا انظرى إلىّ .. أفأنا تلك الفتاة التى كنت تمثلينها للشبان المساكين الذين

كنت أدفعهم إلى أحضانك ؟.. أفهذا هو الأسلوب الذى كنت تحدثينهم به ؟.. ألا وداعا يا بشرتى الناعمة .. وداعا يا شفتى !.. ما أسهل أن يودع المرء أختا من أن يودع صورته !

وتنطلق « جوديث » ، والمدينة كلها ساهرة .. وأبناء إسرائيل جاثمون فى دورهم ، خلف النوافذ ، يترقبون رحيلها ..

ويدخل يوحنا على سوسانا الحائرة ، فما أن يعلم أن جوديث قد رحلت حتى يقول لها :

يوحنا : هل تذكرين الطريق القصير ؟ إذن فاسلكيه لتسبقى جوديث !.. ويلوح وجه النبى فى النافذة يدعو جوديث إلى النجدة ، فيسرع يوحنا إليه ويجره إلى الحجرة ويقتله ، ثم يقول :

يوحنا : ها هو ذا الإنقاذ قد واتاك !

الفصــل الثانى

وترفع ستار الفصل الثانى عن اثنين من « ياوران » هولوفيرن ـــ هما « أورى » و« أوتا » ـــ فى حجرة داخل سرادق الملك ، وهما يعابثان امرأة قوادة تدعى « سارة » ، اعتادت أن تستجلب إلى المعسكر بعض بنات إسرائيل . ويفد ضابط مفرط فى التزين والتنعم ـــ كالإناث ـــ يدعى « إيجون » ، فيسأل « سارة » عما أعدت لهم الليلة من لهو ، فتقول :

سارة : « أعددت مهزلة .. أبدع دور مضحك لعبته يهودية ـــ أو ستلعبه ـــ على مسرح .

إيجون : ومن تكون تلك اليهودية ؟

سارة : إنها فى الطريق إلى هنا .. فتاة فى العشرين من عمرها .

إيجون : لعلها متسولة أخرى ؟

سارة : بل إن أباها مليونير ، وقد ظل أجدادها خلال القرون الثلاثة الأخيرة يقرضون الناس أموالهم ، ويسرقونهم ، ليقيمـوا قاعدة من ذهـب تقف عليها هذه « التحفة » العجيبة !.. إنها آتية لكى تقابل هولوفيرن .

إيجون : إذا كنت وتلك اليهودية تعتزمان شرا ..

سارة : ولكننى لم أدبر زيارتها ، وإنما أوفدها شعب إسرائيل ، فإن

أنبياءهم يقولون أن لا سبيل لنجاتهم إلا إذا جاءت أجمل فتيات المدينة وأطهرهن إلى هولوفيرن ساعية ، دون ما حراسة .. ويعتقد الكثيرون أن جوديث هذه هى الفتاة التى يتحدث عنها الأنبياء .

إيجون : جوديث ؟.. أتقولين إن اسمها جوديث ؟.. ماذا كان اسم تلك الفتاة التى دبرت مقتل ضابط الحرس فى الأسبوع الماضى ؟

سارة : إنها نفس الفتاة .

ويرى « إيجون » أن ينتقم من الفتاة لما أصاب زملاءه ، فيعتزم أن يتظاهر لدى وصولها بأنه الملك « هولوفيرن » .. ويمضى فى التدبير مع سارة وأوتا وأورى .. ولا تلبث « سارة » أن تقول :

سارة : إنها وشيكة الوصول الآن ، فقد رصدنا الجواسيس فى طريقها منذ بارحت المدينة .. وقد دخلت المعسكر من ناحية الجدول الذى هاجمكم منه أعداؤكم فى المرة السالفة ، وقد امتزج ماؤه بالدم .. ومع ذلك فإن الفتاة انحنت فشربت وأطفأت عطشها !

وتلج « جوديث » ، فيتجاهلها « الياوران » ، وتستقبلها « سارة » فى تبسم ، ويبدو على « إيجون » الجفاء والغلظة ، وهو يواجهها بأن حيل النساء لم تعد تثير نأمة فى نفسه . ثم يسأل « سارة » عنها ، فتقول :

سارة : إنها عذراء يا مولاى .. لم تخلق بعد عذراء أحيطت بالغزل والاشتهاء عن قرب مثلها ، ومع ذلك فإن بكارتها لم تمس ..

ولديها شهادة من الحاخام الأكبر بذلك !.. أتحب أن ترى بعينيك ؟.. إن الأخريات ينحلن وتجف أعوادهن جوعا ، أما هي فتزداد نموا ، وما أراها إلا تتغذى على أبهة الزمن وأمجاده !

إيجون : لدينا الكثير من هذه نقدمها إليها .. ما هذا العبير الذى يحف بك ، أهو عطر يهوذا الملكى ؟

سارة : لا يا مولاى .. هذا عبير مصرف المدينة . لقد أنبأتك بأنها غنية ، ومع ذلك فإنها تقف أمامك أسيرة ، كسيرة ، يفتتها الخوف .. انظر كيف تقف متيبسة ، شاحبة !

إيجون : كلمة أخرى وآمر بطردك يا سارة ! (**يلتفت إلى جوديث**) ما الذى أتى بك إلى سرادقى يا عزيزتى ؟

جوديث : أحببت أن أرى ملكا عظيما .. وجها لوجه !

إيجون : (**يسألها متهكما**) فهل ترينني كما تصورتني ؟

جوديث : (**تجيب**) لقد جئت قانطة ، فإذا بى أصبح على أمل .. ففى أسلوبك فى الحديث ما يبعث الأمل .. إننى ألمس تحت نبرات الحاكم الخشنة ، نوعا من حب المرح .. ثم إن فيك فضولا يشجعنى !

إيجون : حذار من تصوراتك يا طفلتى ، فلقد قطع هولوفيرن على نفسه ألف وعد فى حياته ، ولكنه لم يتقيد بواحد منها قط !.. تكلمى يا فتاة .. باسم من قدمت إلينا !

جوديث : جئت من تلقاء نفسي .. أتعرف الفرق بين الفتاة والمرأة ؟

إيجون : الفتاة هى تلك كانتها سارة منذ عهد بعيد !

جوديث : أفتعرف ما قيمة أن تكون الأنثى فتاة ؟

إيجون : كل امرئ يعرف هذا ، فيما عدا الفتيات أنفسهن ، إذ أن الفتاة لا تكاد تعرفه حتى تكون قد أصبحت امرأة .

جوديث : إذن فأنا شاذة على هذه القاعدة ، لأننى أعرف ما أنا عليه ، دون أن أصبح امرأة !

إيجون : لنقل إنك لم تصبحى امرأة بعد ، ولكنك على استعداد للعمل الجليل الذى يجعلك واحدة منهن .

جوديث : إن البقاء فتاة ، معناه الانصياع لقوة عمياء تفرض الألم ، والشقاء ، والعذاب .. كل ذلك بأمل الالتقاء بالعظمة ممثلة فى كيان شخص آخر !.. هولوفيرن ، ألا اعف عن أهل إسرائيل ، فيمجد اسمك بينهم إلى الأبد !

ويظهر « إيجون » استهتاره ، ويقول :

إيجون : ثم إننى لا أحب النساء كثيرا

فتقول سارة :

سارة : سترجع عن مسلكك هذا الليلة ..

فيغتاظ «إيجون» ويأمر بأن تساط ، ولكنها تستغفره . فيدع مصيرها لجوديت كى تبت فيه ، فتضرع القوادة إلى الفتاة ، ولكن هذه تبقى جامدة ..

* * *

ويعفو إيجون أخيرا عن سارة ، بينما يقول أوتا :

أوتا : حذار يا مولاى .. لو أنك عانقت هذه العذراء لأنجبت

نسلا جديدا من المرابين والأنبياء !

إيجون : صه يا أوتا !.. تكلمي يا جوديث ! ألا ترين أننا أطلنا فى تمثيل هذه المهزلة ؟

جوديث : مهزلة ؟!

إيجون : لقد كنت أعرف أنك قادمة .. سمعت ذلك من أفواه أولئك الشبان الذين كانوا يهتفون باسمك ونحن نمزقهم إربا إربا .. لكأن جيش إسرائيل بأسره لم يقم إلا للدفاع عن هذا الاسم !.. على أننى لم أكن مبتكر الخرافة التى تقول إنك تنقذين اليهود بمجيئك إلى هنا .. ومن المحتمل أن لا نهاية لهذه الحرب إلا بنزال بينى وبينك ، وها نحن الاثنان وجها لوجه !.. لقد انتهت الحرب ، فعودى حرة إلى بلدك . إنك جد جذابة ، ولكننا لا نستمرئ مفاتنك .. أفأنا مخطئ إذ أرى أن فى وسعك أن تهزمى غريمك ؟ إذن فقربى وجهك من وجهى ، واطبعى قبلة على جبينى ، لأرى ما إذا كانت لديك الجرأة !

وتقترب جوديث فتطبع قبلة على جبينه . ثم تمسك به فجأة ، وتطبع قبلات حارة على شفتيه .. وتتصاعد ضحكات السخرية ، فترفع جوديث يدها بخنجر ، ويصيح « إيجون » طالبا إقصاءها ، ويترك مصيرها لحارس أسود لينال متعته منها . ولكن العبد يرفض أوامره ، فيأمر « إيجون » بقتله .. وإذ ذاك تنفرج الستائر ، ويظهر هولوفيرن فيأمر بالقبض على « سارة » وقتلها .. وتستعطفه المرأة ، فيقول :

هولوفيرن: إذن فلنبدأ المهزلة من جديد .. سنسأل الشابة ما إذا كانت تعفو عنك !

ومرة أخرى تضرع القوادة لجوديث ، ولكن هذه لا تحير جوابا . فيأمر الملك بإعدام « سارة » ، وإذ ذاك تصيح هذه :

سارة : أتظن أن بوسعك القضاء علينا ؟.. ستعيش إسرائيل بالرغم منك ، وسيأتى المسيح ويخلصنا . ولن يكون هذا بسبب الغنية الحمقاء التى تمشى فى الأرض مباهية بأنها عذراء ، وإنما بسببى أنا .. سارة ، قوادة العاهرات !.. خذ المدينة ، ولكنك لن تقتل يهودها ، لأننى ظللت الأسابيع الطوال أهربهم إلى التلال فى جنح الظلام .

هولوفيرن: يا للمسكينة !.. لقد كنت أرسل فرسانى فى كل صباح ليتعقبوا اليهود ويقتلوهم !

وتلقى « سارة » بنفسها على الملك ، ولكن الحراس يجرونها .. ويخرج الجميع ، فيبقى هولوفيرن وجوديث وحدهما ، ويتأمل الملك الفتاة ، ثم يقول :

هولوفيرن: من أى بقاع الأرض جاءت هذه المرأة .. أكمل النساء ؟

جوديث : من ساحة قتال ، يموت فيها الرجال !

هولوفيرن: إنك تختلفين عن الأخريات يا جوديث .. أكثر اختلافا مما كنت أتصور !

وتبدى جوديث اشمئزازها من نفسها بعد الذى فعلته مع إيجون ، فيقول الملك :

هولوفيرن: امسحى طلاء الشفاه عن ركن فمك ، ليختفى أثر إيجون عن وجهك .

جوديث : أتظن أننى سأقوى على أن أظهر بوجهى للعالم بعد الذى فعله الله بى ؟.. لقد لطخت بالعار !.. ثم إن أحدا لن يمحو القبلة الزائفة التى ساقها الله لى !

هولوفيرن: (**يطبع على وجهها قبلة خفيفة**) ها قد تطهر الوجه .. لكأنما محيت عنه آثار قبلات الآخرين من أصدقائك !.. إن الغضب هو خير ما يخلع على وجه المرأة مظهر البكارة المهتاجة ، ويكشف سرها .

جوديث : وما سرى ؟

هولوفيرن: إنه السر الكامن خلف هاتين العينين الباردتين ، الجامدتين .. إنه العذوبة !.. الحلاوة !

جوديث : ألم تشعر بالخنجر تحت غلالتى ؟

هولوفيرن: كأنه جزء من جسمك .. الجزء الوحيد منه الذى يتمنى لى الأذى ! أما باقى الأجزاء فيسودها الحب !.. إن فى العمر فترات لا يجد فيها المرء موطئا لقدمه إلا فى اللهو العابث الفارغ .. أفهذا ما جئت تنشدينه عندى ؟

جوديث : إن الموطئ الوحيد لنفسى الآن ، هو حيث أستطيع أن أحقرها .. أفتظن أن إسرائيل ، والله نفسه ، كانا يتملقاننى عشرين عاما ليلقيا بى إلى مثل هذا الشرك الذى نصبه لى إيجون ؟.. إن جسمى وروحى مضرجان بالعار !

هولوفيرن: لقد محونا هذا وفرغنا منه !.. حدثينى عن إلـٰهك ، فطالما طاب لى الحديث عن الآلهة الضعاف ، الذين تعتمد ألوهيتهم على ما يستطيع البشر أن يمارسوه من حب !.. وأبناء جنسك ؟.. ألم تعديهم حين تركتهم بأنك ستعملين على خلاصهم ؟.. إنهم ما زالوا يصرخون باسمك !

جوديث : لكأنما انقضت ألف عام على ذلك .. لم أعد أفقه لغتهم ، بل إننى لأشعر بالعار لأننى تكلمت بها يوما .. لقد سئمت الترانيم التى تقحم الله فى كل كلمة .. لقد سئمت الكلمات ، فلن أتكلم !

هولوفيرن: بل يجب أن تتكلمى .. ليس ثمة ما تخافينه ما دمت فى سرادق .. إنك لتفهمين جيدا .. لقد بدأت تحدسين أين أنت .

جوديث : لكأننى فى جزيرة .. فى عراء .. فى جوف غابة !

هولوفيرن: أترين ؟ لقد كنت طيلة الوقت تدركين أن هذا مكان لا وجود فيه لشىء يسمى الله !.. هذه الياردات المربعة الثلاثون هى أحد الأركان النادرة فى الحياة ، التى يكون البشر فيها أحرارا طلقاء !.. إن عالمنا المسكين موبوء بالعبادات يا جوديث ، ولكن لا تزال ثمة حدود لا تتجاوزها هذه العبادات ، وهنا أحد هذه الحدود .. هنا لا حاجة بك إلى الصلاة أو الترنم .. أرى أنك قد بدأت تعرفين من أنا !

جوديث : ومن تكون ؟

هولوفيرن: أنا الملك الوحيد الذى يجرؤ — فى هذه الدنيا الموبوءة بفكرة الله ! — على أن يكون إنسانا .. رجلا ! أنا رجل هذه الدنيا .. صديق الطبيعة وعدو الله !.. تصورى عذوبة الحياة إذا ما تحررت من المخاوف ، ولم تعد بك حاجة للصلاة ! تصورى كيف تصبح الحياة إذا كان الرجل بريئا حقا !

جوديث : إذن فأنت تعرض علىّ البراءة ؟

هولوفيرن: أعرض عليك الليلة — وطالما ظللت راغبة — نعمة البساطة التامة وما يرافقها من طمأنينة .. أقدم لك « المتعة » يا جوديث ، وإنها لكلمة تجعل صورة الله تتلاشى !

جوديث : إن له وسائله للعودة سريعا .. أفلا يحسن بنا أن نسرع ؟!

هولوفيرن: نسرع ؟.. أتظنين أن هناك منظرا أحب من منظر امرأة تتجرد من الاعتقاد بوجود الله ، ومع ذلك فإنها تبقى مكتسية .. كساؤها الحرية التى عثرت عليها حديثا !.. ما أجملك يا جوديث !.. الواقع أن جسدك بأسره ينادينى . ما الذى تبغين ؟

جوديث : أريد أن أفقد نفسى !

هولوفيرن: جسمك يقول هذا ، ولكن لهجته أرق !

جوديث : إذن فلن أنصت إلى جسدى .

هولوفيرن: إن جسدك ينبئنى بأنه مل وسئم ، وسيهوى إلى الأرض متهالكا ما لم يتلقه رجل وييسر له الرقاد المريح !.. إن جسدك

يريد أن يصبح إلـٰها وربا !

* * *

وهنا يقبل « أوتا » معلنا أن « جوديث » بالباب ، فتبدو الحيرة على هولوفيرن ، ولا تلبث أن تلج « سوسانا » . ويثور بين المرأتين جدال محتدم ، تأبى خلاله سوسانا أن تنصرف دون جوديث . ويسأل هولوفيرن هذه :

هولوفيرن : ما الذى تبغيه ؟

فتجيب الفتاة :

جوديث : إنها تريد أن تنقذنى !

ويلتفت إلى المومس متسائلا :

هولوفيرن : وهل هى فى خطر ؟

سوسانا : أجل ، ولكنه ليس الخطر الذى كنت أتوقعه !

جوديث : لعلك ظننت أنك ستجديننى جاثية على ركبتى أصرخ ضارعة أمام وحش ملتح !

سوسانا : لم أكن أتوقع أن أعكر صفو موقف غرامى !.. ما هكذا يتصور أهل المدينة المنظر .. إنهم يتمثلون جوديث راكعة تتوسل إلى وحش . ولكن .. من ذا الذى يقف أمامها ؟.. إنه أول رجل حرك شعور جوديث . لقد أوفدها الله إلى هنا ، فإذا الرجل يستبقيها هنا .. ألا أنقذه يا هولوفيرن ؟

ويتساءل الملك فى دهشة :

هولوفيرن : وما هذا الذى أنقذه ؟

فتقول سوسانا :

سوسانا : شرف الدنيا ..

هولوفيرن : (فيراجعها قائلا) تقصدين شرف جوديث ؟

وإذ ذاك تقول :

سوسانا : الاثنان سواء .. اليوم !

هولوفيرن : يا سيدتى العزيزة .. لسوف تكون هناك كثيرات يحتللن مكان جوديث ، فليس من شيء يتناسخ ويتجدد بسرعة قدر العذارى !

سوسانا : لقد جئت لأنقذها .

جوديث : ها هو ذا الله يكشف سرهـــــا .. إنها تحسدنى على هولوفيرن .. ها هى ذى غريمتك يا هولوفيرن ، فإن كنت راغبا فىّ ، فاطردها من هنا .

وتروح المومس تتوسل إلى الملك أن ينقذ جوديث من نفسها ، قائلة :

سوسانا : لقد أبصرت نفسها فجأة عارية ، مجردة من القداسة ، فإذا بها تسعى إلى القضاء على نفسها ! ..(وتهيب بالفتاة) : تذكرى إسرائيل !

جوديث : إسرائيل !.. كل ما يهم إسرائيل هو أن جوديث جاءت إلى هولوفيرن ، وهذه غاية واجبها نحو قومها والله والأنبياء .. ومن هذه النقطة ، يعمل القدر بمنأى عن قدرة جوديث ، فليس فى وسع هولوفيرن ، ولا جوديث المسكينة ، أن يفعلا شيئا .. إن الله لا يهتم إلا بالمظهر ، ولا شأن له

بالتفصيلات !.. إن الله يطلب منا أن نرتدى لباس الضحايا ، أما خلف هذا المظهر ، فإنه يتركنا أحرارا فى أن نرضى رغباتنا ، وأحط شهواتنا !.. إن أي فرد فى المدينة خليق بأن يعرف الفرق بين هولوفيرن وخادمه .. وهذا ما لم تستطعه القديسة جوديث ، لأن الله أراد أن يقضى عليها ، ولكننى لن أدعه يفعل ، بل سأقضى على نفسى بنفسى .

وتخرج سوسانا وقد أيقنت أن جوديث اختارت هولوفيرن دون الله .. ويهتف هولوفيرن :

هولوفيرن : إلى أحضانى أيتها اليهودية !

جوديث : هذه الإهانة تجعل اليهودية على قدم المساواة معك .. الليلة !

هولوفيرن : إنك لا تدرين ما تعنيه كلمة « يهودية » عندنا : الجشع ، والفقر ، والدم الذى ينبض بالخوف أشد مما ينبض بالشهوة !

جوديث : إنها تعنى شيئا آخر .. فلا تعرف قوة العناق سوى اليهودية !

هولوفيرن : الآن ، لن تقتلى نفسك .. فليس الطهر إلا مجرد كلمة !

جوديث : ولكننى لست طاهرة .. أفتظن أن أية عذراء كانت تجتاز ميدان المعركة وتأتى وحيدة لتواجه المجهول ؟.. لقد منحت نفسى للرجل الذى أحب ، قبل أن أغادر المدينة !

هولوفيرن : إنك لم تحبى أحدا على الإطلاق . ثم إن النساء اللاتى على

شاكلتك يأنفن من أن يمنحن أنفسهن لمجرد الحب .. إذا كان هذا المنح للمرة الأولى ، على الأقل . إنك تؤثرين أن تؤخذى قسرا .. لن يدهشنى منك شىء . إن المرأة مخلوق اكتشف طبيعة نفسه ، أما أنت فلا تزالين تبحثين عن نفسك ، ولهذا فأنت عذراء ، ولن تعرفى حقيقة نفسك إلا صباح غد !.. لسوف تنهضين من فراشى بأول وليد لك .. بنفسك ! لسوف أنقذك من كل شىء يهدد بأن يسلب من حياتك معناها .

جوديث : ومن الحب أيضا فيما أحسب ؟.. لقد اكتمل عذابى ، وتحول صراعى مع هولوفيرن إلى مباراة غرامية بين جسدين ..

ويقبلها ، ثم يتساءل :

هولوفيرن : هل حلمت كثيرا بهذه اللحظة ؟.وإذ تقول :

جوديث : أجل ، لقد أنفقت عمرى كله أفكر فيها . ويسألها :

هولوفيرن : وهل لم تعودى راغبة فى إطالة الانتظار ؟.. هذه هى ذروة الحياة !

جوديث : بل هذا أدنى ما هبطت إليه !.. لقد تخلى الله عنى ، ولست أدرى علة ذلك . إنه يريد فتاة تضحى بنفسها ، ويدفعها نحو التضحية .. حتى إذا جاءت اللحظة ، لا يطيق الله التفصيلات ، فيشيح بوجهه !.. لقد كنت شديدة الزهو

بعفتي ، فإذا الله يريدني على أن أرميها بعيدا ، في غير مقابل على الإطلاق !

وبينما تتجرد جوديث من ثيابها في غرفة داخلية بالسرادق ، تروح ترثى لنفسها ، وعفتها .. ولكنها لا تنفى عن نفسها أنها تسير إلى عارها راضية ، مغتبطة .. فقد أحبت هولوفيرن !.. لقد صوروه لها وحشا ، عملاقا ، فوجدته شابا .. رجلا .. إنسانا ، فلم تتمالك أن أحبته !

الفصل الثالث

ترفع الستار عن المكان السابق وقد جلست « سوسانا » وحيدة ، وعلى ركبتيها ثوب « جوديث » .. وعلى أريكة خشبية ، يستلقى حارس فى غيبوبة من أثر الخمر . ويقبل « يوحنا » يسترق الخطى ، فتسأله الموميس عما أتى به ، وكيف جاء . ويجيبها بأن سارة قد أفلتت وأنبأت إسرائيل بكل شيء ، فقام أبناؤها إلى سلاحهم لينتقموا من جوديث لأنها خانت ثقتهم .. واستطاعوا أن يتسللوا إلى المعسكر لأن سارة كانت قد أسكرت الحراس وخدرتهم ..

سوسانا : وماذا تراك فاعلا ؟

ويجيب بأنه سينجح فيما أخفقت فيه جوديث ، ثم يسألها أن تقصى الفتاة عن هولوفيرن ، فتقول :

سوسانا : ولكنهما نائمان !

يوحنا : نائمان !.. أتقولينها بهذا الهدوء ؟ إن جوديث هى الوحيدة من أبناء إسرائيل التى غمض لها جفن فى الليلة الماضية !.. لقد كنت طيلة الليل أتمثل المنظر ، فتطن الأصوات فى أذنى .. لم تفتنى أية دقيقة من الهول .. لا ، إننى أعرف جوديث .. أواه ، ما أتعسنى !

ويصيح مناديا :

يوحنا : جوديث ! جوديث ! ، فتقبل هذه متشحة بعباءة هولوفيرن ، وتزيح الستار لتطل على الخارج تتعرف على الوقت ، وتقول :

جوديث : لا شك فى هذا .. نقطة من الدم فى الأفق ، وريح باردة تتخلل شعر جندى مسكين يرقد ميتاً على أرض المعركة ، وسماء تختلط فيها صفرة القبح بوهج الذهب .. وجوديث مفعمة بالعار والهناء .. إنه الفجر !

وتعود إلى الداخل ، فيسألها يوحنا عما إذا كانت قد استمتعت بليلتها ، ثم يردف :

يوحنا : كل إسرائيل تعرف أنك خنتها .

جوديث : يسرنى هذا ، فقد كنت أفكر فى إطلاعهم !

يوحنا : لقد رجموا خدمك ، وحرقوا بيتك ، وجرحوا عملك .. إنهم يلعنون اسمك .

جوديث : لم أعد أنتمى إليهم .

يوحنا : فلمن تنتمين إذن ؟.. إلى هولوفيرن ؟

جوديث : بل إلى الموت .. أشهر حسامك إن شئت ، فإننى متأهبة .

ولكنه يقول إن سيفه معد لهولوفيرن ، أما هى ، فسيتولى عقابها الكهنة والأنبياء — الذين يسعون فى موكب إلى المكان — لأنها غدرت بهم وخانت الله .

جوديث : من الذى كان خائنا : الله أم جوديث ؟

يوحنا : آه .. إن الثمرة قد شحذت مخالبها .

جوديث : إذن فكن شجاعا مرة فى حياتك ، وقم بدور الصياد بدلا من دور الجندى الذى لا يعمل إلا بالأمر !

ويشهر يوحنا سيفه ويتسلل إلى الغرفة الداخلية ، حيث يوجد مخدع هولوفيرن . ولكنه لا يلبث أن يعود مبهوتا ، مأخوذا ، ثم يهتف :

يوحنا : هلا غفرت لنا يا جوديث ؟.. ألا قبلى الثوب الذى كانت ترتديه حين عبرت ساحة الحرب يا سوسانا .. مباركة كل شعرة فى رأسها !.. مبارك ذلك الحقد الذى يعمر قلب جوديث !.. سأجعل نفسى أهلا لك يا جوديث .

ويهرع إلى الغرفة الداخلية ، بينما تركع سوسانا أمام جوديث ، فتقول لها هذه :

جوديث : انهضى وإلا لطخت ثوبك .

وتسألها سوسانا : إذن فقد قتلته ؟

جوديث : كما يفعل السفاكون ! آمل أن تفهمى لماذا قتلته .

سوسانا : لقد أحالك الله إلى حقد مجسد .

جوديث : حقد ؟.. أتعتقدين حقا أننى كنت أستطيع — بالحقد — أن أقتله عند الفجر ، بعد سويعات من اتخاذه إياى زوجة ؟

سوسانا : إنى أومن بأن جوديث كانت وفية لرسالتها !

جوديث : بل الأمر بعيد عن هذا . إن اللحظة التى هوت فيها جوديث بطعنتها ، هى اللحظة التى نسيت فيها نفسها ، ونسيت من أين أقبلت ، ونسيت ما كان مفروضا عليها أن تفعل !.. وإذا كان قد قدر لى أن أعيش حتى أروى قصتى ، فأرجو أن

تكونى شاهدتى أمام قضاتى حين يصلون .. أريد أن أروى لهم أن قصة جوديث لم تنته إلى حقد ، فالواقع أن الذى مات فى الغرفة الأخرى إنما كان .. حب رجل وامرأة !.. إننى لم أنم سوى لحظات خيل إلىّ أنها ليل طويـــل ، ثم استيقظت . ولأول مرة فى حياتى ، رأيت نفسى فى الفجر إلى جوار رجل .. وكان كل شيء قد انتهى ، فلم أعد أتطلع إلا إلى فقدان هذا الرجل !.. لقد خطر لى أنه حتى إذا صار زوجى ورجلى ومـلك يدى أمـام اليهود والأشوريين ، فسوف يتركنى فى كل صباح ويعود إلى دنيـا الأحيـاء والكفاح .. ومن ثم ، فلم تكن ثمة طريقة أخرى لأستبقيه لى وحدى على النحو الذى كان فى الليلة السالفة .. ألم يوح إليك يوما مرأى جسد نائم إلى جوارك ، بأن القتل قد يكون أكثر ألوان الحب حنانا ودواما ؟!

سوسانا : ولكن جوديث ستظل على مر القرون معروفة فى التاريخ بأنها العذراء التى اختارها الله لاغتيال رجل كانت تكرهه ، لأنه عدو قومها !

جوديث : لن يكون هذا مطلقا . سأخبرهم بكل شيء !

ويقبل إذ ذاك يواقيم وبعض الأنبياء ، فيبادرونها بالتمجيد والتقديس ، إذ كان « يوحنا » قد انطلق حاملا رأس هولوفيرن على ذؤابة سيفه ، وراح يعلن أن جوديث قتلت الجبار ، مما أشاع الفرقة والهلع فى قلوب جنوده ، وبث الجرأة فى قلوب اليهود . وتحاول « جوديث » أن توقف

سيل المديح ، لتعلن الحقيقة ، ولكن يواقيم يهيب بها :

يواقيم : صه يا فتاة .. غير أنها تصيح :

جوديث : أكاذيب .. خرافات !..

ويمضى الأنبياء فى الترنم بمزاميرهم متغنين بالحقد الذى كان يملأ قلب جوديث

ويقول أحدهم : وأرقدها الطاغية عارية ..

ويرد آخر : ولكن الله ستر عريها .

فتصيح : هذا غير حقيقى !..

ويهتف المترنمون : ولم يمسسها .. لم يمسسها .

جوديث : (**تصيح**) بل امتلكها !.. وكانت مليئة بالحب له ، حتى لم يعد فى قلبها مكان لأى أحد .. ولا لله !.. دعونى أفضى بالحقيقة . لقد ضاجعت هذه اليهودية هولوفيرن ، واستمتعت به !

وتتدخل سوسانا ، زاعمة أنها هى التى نامت محل جوديث وأنها هى التى اعتدى عليها الملك ، محاولة بذلك أن تحفظ للفتاة سمعتها الطاهرة ، ولكن جوديث تكذبها .

فيصيح الأنبياء : صه يا جوديث !

يواقيم : إنك تقضين علينا يا جوديث !

جوديث : (**ماضية فى حديثها**) كانت تنشد اللذة على ذاك السرير ، وقد فازت باللذة !

الأنبياء : (**نادبين**) قضى علينا بالضياع .. قضت علينا الفتاة !

وينتحي يواقيم بجوديث بعيدا عن الموجودين ، ويروح يساومها لكي تمسك لسانها عن ذكر الحقيقة قائلا

يواقيم : إن أتفه زلة من لسانك تحرم القوم معجزتهم !..

ويمنيها بقصر على حافة البحيرة ، تحف به المتنزهات والأشجار ، وله شاطئه المنعزل الذى لا يقتحمه عليها أحد .. فتقول :

جوديث : أتظنني أقنع بهذا ؟.. إنه الشيء الذى يهبه الرجل لعشيقة لم تعد تصلح للعشق . أما أنا فما زلت فى العشرين !.. لقد قتلت رجلا نيابة عن غيرى ، فإذا الله يتلوى غيرة منى !.. أكاد أشعر به حوالى ، يحاول أن يختطف الفضل لنفسه !.. إنه قد يهبني قصرا أعيش فيه محوطة بهالة من المجد ، ولكنني أعرف الله .. إنه لن يلبث أن ينتزع هذا الجزاء منى فيما بعد !

أحد الأنبياء : إن لصبرنا حدا يا فتاة !

جوديث : إذن فافقدوا صبركم .. إن الله لا يحفل بشيء . ما شعرت لحظة بوجوده طيلة الليلة السالفة . انتظرته ليحيلني إلى ملاك ، فلم يفعل .. ومع ذلك ، فقد تمت المعجزة التى كنتم تريدونها .. ولكنها كانت خدعة .. تلك المعجزة !

يواقيم : لا تكونى عنيدة يا جوديث .. إن فى قصتك غراما ، ولكن هذا الفصل يمكن أن ينسب إلى سوسانا .. يجب أن تقولى ما ذكرنا لك ، وإلا قبضت على عنقك لأعتصر الحقيقة ..

جوديث : الحقيقة ..

يواقيم : أجل .. الحقيقة هى أكذوبة الله للدنيا !

وتشتد الحيرة بجوديث ، وينهكها الصراع ، فتقول — فى إعياء — ليوحنا الذى أقبل بدوره لإقناعها :

جوديث : لا تزعج نفسك .. سأذهب معكم إلى المدينة .

أحد الأنبياء : حيث تثيرين تلك الفضيحة ؟.. لا ، لن نبرح السرادق حتى نسوى المسألة ..

يواقيم : إن لنا شروطا ، لنحمي أنفسنا ضد أى انتكاس .. ستعيشين فى معبد ، لا ترين فيه صديقا ولا أهلا .. وإذا كانت قد بقيت فى حلقك كلمات عن الحب واللذة ، فابصقيها الآن ، قبل أن تخلدى إلى صمت أبدى !

جوديث : إن حلقى جاف .. وجسدى هو الآخر جاف ! لقد قبلت !

أحد الأنبياء : المجد لجوديث .. لقد نجت إسرائيل !

جوديث : ادعوا الدنيا كى تفسح الطريق للقديسة جوديث !

ويخرج الأنبياء يترنمون ، وخلفهم جوديث ويواقيم .. ويركع يوحنا ، بينما تهبط الستار .
